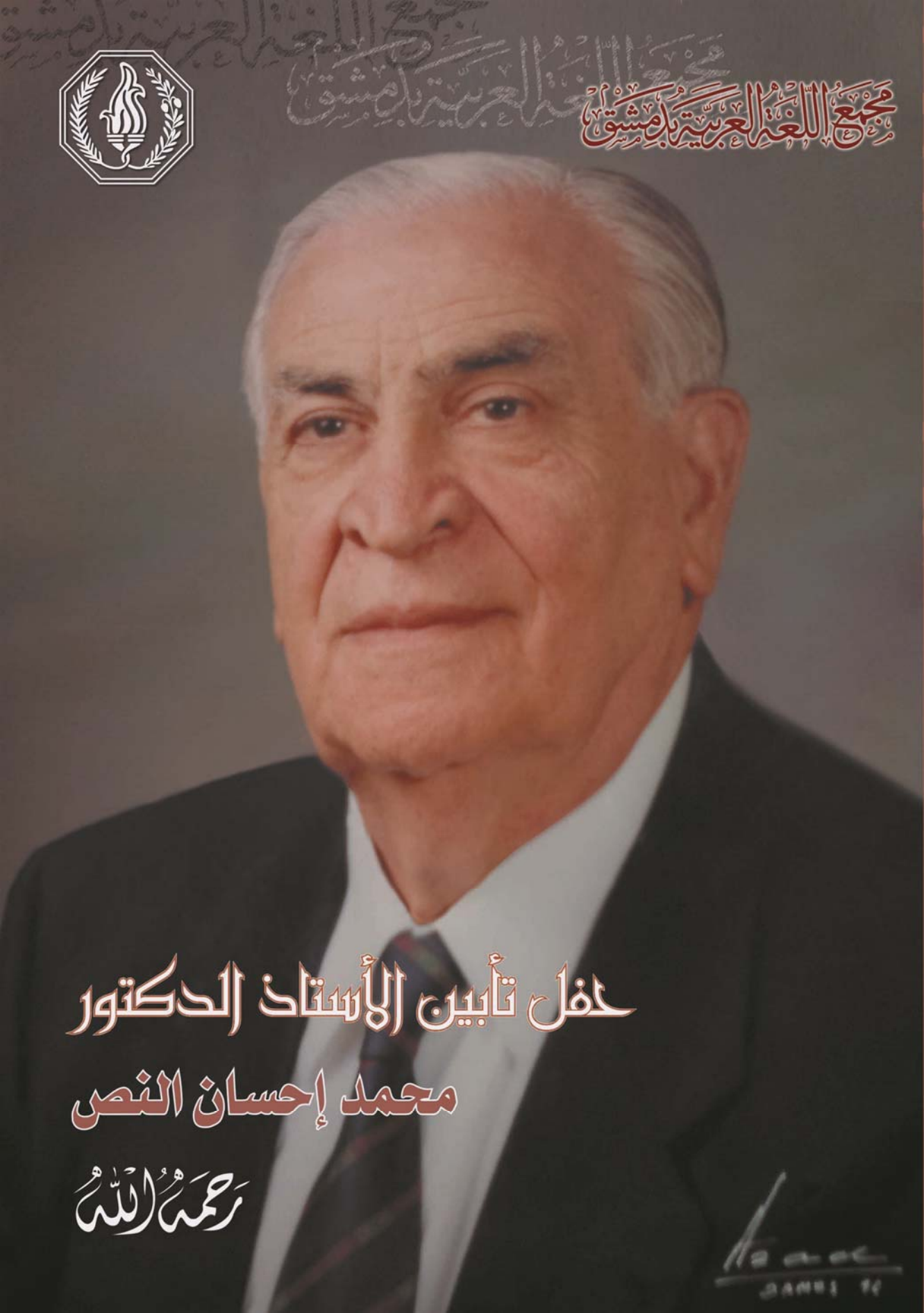

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

محمد إحسان النص

رحمه الله

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

محمد إحسان النص

رحمه الله

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حفل تأبين

الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص

رحمه الله

مقدمة

أقيم في الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء في ٧ رجب ١٤٣٤هـ الموافق ١٥/ ٥/ ٢٠١٣م في قاعة المحاضرات بالمجمع حفل تأبيني للراحل الكبير الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص رحمه الله.

وقد اختار الله فقيدنا إلى جواره يوم الاثنين في ١٣ شعبان ١٤٣٣هـ الموافق ٢ تموز ٢٠١٢م بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء المتنوع.

حضر الحفل لفيف من الشخصيات الرسمية والأدبية والثقافية وجمهور غفير ممن عرفوا الدكتور النص.

- بُدىء الحفل بتلاوة آيات مباركة من الذكر الحكيم، ثم تتابع إلقاء الكلمات كما يلي:
    - كلمة رئيس مجمع اللغة العربية الأستاذ الدكتور مروان المحاسني.
    - كلمة جامعة دمشق ألقاها عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور خالد الحلبوني.
    - كلمة الموسوعة العربية ألقتها الأستاذة منى الحسن.
    - كلمة أصدقاء الفقيد ألقاها الأستاذ الدكتور محمود الربداوي.
    - كلمة تلامذة الفقيد ألقاها الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف.
    - كلمة آل الفقيد ألقاها بالنيابة عنهم رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني.

وفيما يلي نصوص الكلمات التي ألقيت في هذا الحفل.

كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها السيدات والسادة

لكل منا أيام يقضيها على وجه هذه البسيطة، يتشابك فيها المُفرح والمُحزن لتَحِيْكَ له نسيجًا في ذاكرته، يستحضر منه ما يَروق له أن يستذكره من مشاهد لأحداث وصورٍ، تصحبها مشاعر طبعت حياته بطابعها.

إن الحفاظ على ذكرى من طواهم أجلهم هو جزء هام من حياة المجتمعات التي تُعنى بإبراز ما أنجزه الأفراد في خدمتها، إذ إنه حسب القول المأثور: الثناءُ هو الخُلد.

إن دعوة مجمع اللغة العربية إلى تأبين فقيده الكبير الدكتور إحسان النص رحمه الله ليست مجرَّد واجب اجتماعي تقليدي تجاه مجمعيّ كانت له إسهامات متميزة في أعمال المجمع، وليست بغرض التقريظ لصديق ورفيق عزيز قد أعمل فكره في مجالات ثقافية مُتعددة.

إنها دعوة نريد أن نُعيد من خلالها تجسيدَ نفحات من أعماله، وتثبيتَها في الذاكرة، وتوضيحَ المراحل والمواقف التي كان لها تأثيرها في مسار حياته.

فلقد كان فقيدنا ممن أحبّوا الأدب منذ سنوات التعليم الثانوي، في مكتب عنبر ثم في التجهيز الأولى. وإنّ من يذكر التعليم الثانوي الحكومي، في الثلاثينيات من القرن الماضي، يعرف ذلك المستوى الرفيع الذي جعل من اللغة العربية وتراثِها الأدبي العريق محورًا لتثقيف الشباب وإرساء انتمائهم إلى ماضيهم، وذلك إضافةً إلى اطلاعهم على العلوم الحديثة المنقولة إلى العربية من قبل أساتذتهم، ضمانًا لمستقبلهم.

وكان معظم أساتذة اللغة العربية في التجهيز الأولى أعضاء في المجمع العلمي العربي، من أمثال محمد البزم وعبد القادر المبارك وسليم الجندي.

وكان إحسان النص من الشباب الذين اعتادوا قراءة كتب الأدب قديمِها وحديثِها باللغتين العربية والفرنسية، وبرز طموحه الأدبي حين أخذ يُحرر مجلة طلابية أُعجب بها أساتذته، وقد أوصله دأبه إلى أن يكون ترتيبه الأول على سورية، في الشهادة الثانوية الثانية في فرع الفلسفة عام ١٩٤٠.

وكانت أبواب دراسة الأدب مغلقةً في دمشق حينذاك، إذ كانت الجامعة السورية مقصورةً على كليتين، هما كلية للطب وكلية للحقوق، وهذا ما حَداهُ على أن ينتسب إلى كلية الحقوق سعيًا وراء شهادة جامعية تفتح أمامه مجالًا للعمل، ولو أنه لم يكن مقتنعًا بأن دراسة الحقوق يمكنها أن تشبع ميوله الأدبية.

وحين سنحت فرصةٌ لابتعاث الشباب لدراسة الآداب في جامعة القاهرة، سارع إلى المسابقة التي أجرتها وزارة المعارف، وفاز بالمرتبة الأولى بين المتقدمين، وكان قد أتم دراسته في السنة الثانية في كلية الحقوق.

ثم كانت سنوات أربع قضاها إحسان النص في القاهرة، تلميذًا لأساتذة أجلّاء من أمثال طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، وأمين الخولي، وسهير القلماوي، وأقربهم إلى قلبه شوقي ضيف، الذي أشرف فيما بعد على رسالته للماجستير، ثم على رسالة الدكتوراه، حين عاد إلى مصر عام ١٩٥٦ لإنجاز دراسته العليا بعد انقطاع دام عشر سنوات.

لقد كان مسار حياة فقيدنا كثير التنوّع إذ إنه مارس التدريس في المدارس الثانوية، قبل إعادة إيفاده للتخصص، ثم انتقل إلى التدريس في جامعة دمشق متدرجًا حتى الأستاذية وعمادة الكلية عام ١٩٧٩.

وقد تخلّل تلك المدة إعارتُه إلى جامعة الجزائر، حين كانت الدولة هناك ترسي قواعد التعريب، وبقي فيها من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧١.

ثم أحب الدكتور إحسان النص أن يُنهي مساره في جامعة دمشق لينتقل إلى جامعة الكويت، حيث قضى عشر سنوات عاد بعدها إلى دمشق، ليرأس قسم الحضارة العربية في الموسوعة العربية عام ١٩٨٩. وكان انتخابه عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٩ إلا أنه لم يُستقبل إلا بعد عودته من الكويت، وانتخب نائبًا للرئيس عام ١٩٩٣.

قد يعجب البعضُ من هذا التنقّل بين الجامعات العربية في تلك الحِقْبة، إلا أن هذا المسار كان مألوفًا، إذ كانت جامعة دمشق منارةً تسعى الجامعات العربية المُنشأة حديثًا أن تستفيد من خبرات الأساتذة السوريين، الذين عُرفوا بجدِّيتهم وإخلاصهم ومكانتهم العلمية الرفيعة.

أيها السيدات والسادة

لقد ترك الدكتور إحسان النص رحمه الله نتاجًا فكريًا غزيرًا، يتميز بانتمائه إلى حقول معرفية مختلفة. فله عدد من الكتب، أضافها إلى كتابين يُمثّلان رسالتيه الجامعيتين، عن الخطابة في العصر الأموي، وعن العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، وتلك هي كتبٌ أدبية بحتة، عن شعراء كبار كحسّان بن ثابت، وزهير بن أبي سلمى، والعباس بن الأحنف، وكتبٌ أخرى عن الأنساب العربية والشعر الأموي.

إلا أن بحوثه المنشورة في مجلة المجمع، ثم في الموسوعة العربية وفي بعض الصحف والمجلات الثقافية، وكذلك محاضراته، تسترعي الانتباه إلى وجود ميول وتوجّهات فكرية غيرِ محصورة في المجال الأدبي البحت. فقد غلبت على موضوعات بحوثه هذه اهتمامات ثقافية متعددة، في حقول مختلفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتراث العربي، وتسودها نفحةٌ تاريخية.

فقد كان اهتمامه بالقبائل العربية وأنسابها مثلًا يخدم فكرة التأصيل لتاريخ تلك القبائل، لإبراز ما كانت تمثله في الكتلة الثقافية العربية حين دخلت الإسلام، فله فيها ما يزيد على عشر مقالات نشرت في مجلة المجمع، وألحقها بعدد مماثل نشر في الموسوعة العربية.

وقد تفرّعَت عن هذه الدراسات بحوثٌ طريفة تحاول تحليل بعض المؤثرات الفاعلة في الأدب العربي، في نظرةٍ إلى الشعر السياسي في عصر بني أمية، أو في الخطابة في العصر الأموي، أو في العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، وكذلك الأحلاف القبلية، وصلة القبيلة بالقبائل الأخرى، والصعلَكَة في المجتمع الجاهلي.

كما يجب أن تُسجَّل إسهاماته في موضوعات تنضوي تحت لواء علم الاجتماع، تأكيدًا لانفتاحه على الثقافة الاجتماعية العربية، التي مازالت تَحفِل بتساؤلات لم نصل إلى إجابات عنها. فقد كتب مقالةً يُحلّل فيها أحوال المرأة في المجتمع الجاهلي، ومقالة عن سجايا العرب، وأخرى عن القيم الاجتماعية في المجتمع الجاهلي، وبحثًا عن أزمة المثقف العربي في عصر العولمة.

ولكن اللافت في إنتاجه الفكري تلك النظرة الفلسفية التي ألقاها على موضوعات حياتية، قليلًا ما يهتم بها أساتذة الأدب العربي. فله مقالة بعنوان الشاعر الجاهلي في مواجهة الموت، يعرض فيها شعر كلٍّ من طرفة بن العبد وعنترة العبسي، ومقالة عن عقدة الذنب، ومقالتان إحداهما بعنوان الإنسان ذلك الوحش، والأخرى بعنوان الإنسان ذلك المتناقض، ولعل هذين المقالين كانا تجاوبًا مع كتاب ألِكسي كارِل «الإنسان ذلك المجهول» الذي قرأناه في الأربعينيات، وهو يشرح النواحي المتعددة التي تطبع حياة الإنسان، منها ما هو عضوي، ومنها ما هو نفسي، ويطرح التساؤلات عن حقائق إنسانية بدأ العلم الحديث يُسلّط عليها الأضواء.

كما شملت بحوثه نظرات دقيقةً إلى العصبية القبلية ومقوّماتها، وإلى شريعة الثأر التي كانت سائدة في الجو القبلي، كما نظر إلى العُقَد النفسية في تاريخنا العربي، إضافة إلى مقالة عن الحرب النفسية عند العرب.

وأما دراسته المَوسومَة «المنزع العقلاني في الأدب العربي» التي نُشرت في مجلة المجمع على دفعتين، فهي في نظري دراسة دقيقة يدفع فيها الدكتور النص ادّعاء من ينفون عن الأدب الجاهلي وجود نظرات عقلانية فيه، إذ إنه أكد أن مجموع الوصايا والحِكَم والمُثل تشكل نظرات عقلانية، دون أن ينفي ما يتصف به الأدب الجاهلي من انفعالية وسلوك عاطفي غامر. وأما في الأدب الإسلامي فهو يكشف وجود هذا المنزع العقلاني في مجموع ذلك الأدب القديم من أمية بن أبي الصلت، إلى كتاب الحيوان للجاحظ، إلى الامتاع والمؤانسة والهوامل والشوامل للتوحيدي، إلى رسالة الصحابة التي أرسلها ابن المقفّع إلى الخليفة المنصور، كما أنه يؤكد وجود ذلك المنزع العقلاني في شعر أبي تمام والمتنبي، وصولًا إلى أبي العلاء المعري.

إن هذه النظرة التي تسلّط الضوء على مناحٍ فكرية قلما التفت إليها المؤلفون، ولو أنها لم تغِبْ عن الأدب العربي وعن فكر المعتزلة، هي نظرةٌ توضح وجودَ تيار فكري عربي سَبَقَ ما عرفته أوربا في القرن السادس عشر من وعي إنساني اشتُهر به إراسموس Erasmus، ذلك المفكر الهولندي الذي رفض كل تعصّب ،ورَسَّخ وجود ما أطلق عليه فيما بعد اسم النزعة الإنسانية Humanisme، تلك النزعة التي أكّد الإنسان من خلالها حقيقةَ كونه مخلوقًا فَذًّا يتقدم على جميع المخلوقات برجاحة عقله، وانفتاحه على عالمه.

ويمكننا القول بأن ما ذكرناه من نظرات فلسفية إلى المجتمع وإلى التاريخ، أطلقها الدكتور إحسان النص في دراساته الأدبية، وما نراه في أسلوبه من محاكمة عقلية، كلُّها أمور ترتبط ارتباطًا مؤكدًا باختياره دراسة الفلسفة في الشهادة الثانوية الثانية.

فلقد كان لدراسة الفلسفة أثر كبير في ذلك الجيل الذي أنتمي إليه. فإن دراسةَ المنطق الصوري والتحليلي، ودراسةَ علم النفس، وتوضيحَ القيم وتعليلَها، وتحليلَ القدرات العقلية للإنسان، وتفهّمَ منطلقات المشاعر، كلّها أمورٌ كان لها تأثير كبير في نظرتنا إلى الحياة، وهذا ما جعلَنا ننفتح على العلوم النظرية والتطبيقية بنظرة جديدة، قادرة على التمييز بين السلبيات والإيجابيات، وكشف التناقضات.

وإن ما نراه في الإنتاج العلمي للدكتور إحسان النص مستقًى من لُبّ تراثنا، يؤكد أن موقفه الفلسفي يرفض القطيعة مع التراث، بل إنه بقي يبحث في عناصر التراث الأصيلة، حاملًا روحًا ناقدةً تبرز النقاط الهامة، ولا تنجرف إلى تسفيه آراء الآخرين.

ولعل محاضرةً ألقاها في مجمع اللغة العربية عن «السُخرية من الذات في أدبنا القديم» ٢٠٠٦ تؤكد ما ذكرناه عن فقيدنا، من انفتاح فكري وقدرةٍ على النقد والتحليل.

أيها السيدات والسادة

يشكر لكم مجمع اللغة العربية مشاركتكم في حفل تأبين مجمعي كبير خدم اللغة العربية في ميادين عديدة.

وكان الدكتور إحسان النص طيب النفس، سهل العِشْرة، منفتح الذهن، مالكًا للغة، وقد بقي ملازمًا لعمله في المجمع إلى حين حالت أوضاعه الصحية دون المثابرة على المشاركة في أعمال اللجان.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جناته ... والسلام.

كلمة جامعة دمشق

ألقاها الأستاذ الدكتور خالد حلبوني

عميد كلية الآداب

السادة الحضور

الزملاء المشاركون

تحية الثقافة والمثقفين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد

فإن الأمة ثريّة برجالها، خصبة بأعمالها، وذلك حين تنطلق إمكانات الروح والعقل، وتتحول إلى نشاط يفترع المستحيل بزحف دؤوب، يخترق الآفاق، ويثابر على صيانة الماضي بابتكار العوالم، وإزاحة الشوائب، ببصيرة يقظة، ووعي يوظّف ثراءه لتزكو العبقرية، ويتجوهر البحث الخلاق.

ويشرئب الدكتور محمد إحسان النص ليمارس الإبداع عبر سنوات حياته، فيكشف المضامين، ويضيء المناهج، عبر كينونة عصيّة على الإعياء، كأنها سحرٌ مَصُونٌ، يستحضر سبيكة التاريخ الأدبي، ليصوغ منها دراسات تتحلب دسمًا في آنية البحث، بعقل تحليلي، ونظرة ثاقبة، ورأي حصيف، وأسلوب يتّسم بخصائص قد يتعذر تجاوزها كواقعة موضوعية، ونماذج كتابية تمتلك سرّ الرّسوخ، وتحرّض على نبش الرّكام الحضاريّ، وتُغذيه فيتوهّج خصوبة وحيوية.

ومن تَلْمَذَ عند الدكتور إحسان النص، أو مَتَّع نفسه وفؤاده بتلاوة ما كتب، فإنه سيحظى ببرهة جماليّة لا يستطيع النأي عنها، كأنها نجوم مشدودة بأمراس إلى صمّ جندل. فإبداع الدكتور إحسان قد أحسن إلى الماضي الأدبي الورديّ الغابر، إذ أبرزه لحظاتٍ بهيّة، شديدة الارتواء، من خلال منهج متكامل حرص فيه على استيعاب الأبعاد الثلاثة للنص الأدبي، استيعابًا، وعمقًا، وتحليلًا.

أيها السادة

ونحن نجتمع في هذه السّاعة تلوح لنا منارة الدكتور إحسان ـ رحمه الله ـ تتجدّد كلّ حين، وتتلامح كملّاح يقود السّفينة ليهتدي بها الآخرون.

فنحن أمام صورتين لا انفكاك بينهما:

- صورة الخصوبة الأدبية.
- صورة نقاء الرّؤية النّقدية.

وهذه الثّنائية تتوالف بتوازٍ وافرٍ، يؤسّس لتيار البحث الموضوعي، والرّؤية الإيجابية، فيكون التحليل ابتغاء إثبات مقولة أو تنفيذها.

فلم يكن النقد الأدبي عند الدكتور إحسان تقليديًا، بل هو خلاصة وحدة متكاملة متماسكة، تقرأ ما وراء الظّاهر، وتحذف النظرة السطحية الأفقية، فحلّت العمودية محل الأفقية، واستبدلت الموضوعيّة بالشموليّة. وتبدّى ذلك خاصّة في رسالته لمرحلة الماجستير، ورسالته الأخرى لمرحلة الدكتوراه، حيث شمّر عن ساعد الجدّ، واستجاب لتحدّيات البحث، وكأن لسان حاله يقول:

إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني ... عُنِيْت فلم أكسل ولم أتبلّد

أيها السادة

الأحياء هم أصحاب الفكر والوعي، وإن غادروا الحياة، فإن آثارهم تدل عليهم، وسطور إبداعهم تكافىء دروبهم اللاحبة، وحدائقهم النابتة لا تندثر.

وإذا كان (غوته) يقول أنه تعلم من (هوميروس) درسًا فحواه أنّ علينا أن نصنع الجحيم في الأرض، فإن الدكتور إحسان النص آثر أن يكون عطاؤه مكلّلًا بذهبيّة الكلمة، وخيريّة الهدف، فقدّم دراساته دون فلسفات فارغة لا معنى لها، فإذا به يجمع بين تعليم الطّلبة على محور أكثر من جامعة وأكثر من بلد، وبين امتشاق اليراع ليهب أدبًا فنّيًّا، وبلاغة آسرة، وسيرة حياةٍ تستحق التقدير.

لقد أحب الدكتور إحسان اللغة العربية، فكانت مطواعة له، وسبر أغوارها، فحيّته مضامينها، وكان غيورًا عليها، مدافعًا عنها، فانساقت له جوهريتها، ونهل منها، فنبتت في كتاباته مراعي مخضوضرة، وينابيع متدفقة.

أيها السادة

هذه هي الشام قد ودعت أحد رجالاتها، الذين أضفوا على الأدب العربي، والكتابة الفنية، بصمة إشعاع، وإيجابية تصوّر، وصدق هوية.

فالشام ما برحت مهوى خواطرنا والشّام قبلتنا في كلّ ديجور
والشّام سيفٌ لمجد العرب قاطبة يجزّ شَأْفَةَ خوّانٍ ومأجور
والشّام تبقى على الأيام حاضرة حتى تعمّد جفن الحقّ بالنور

والدّعوة قائمة لرعاية رموز الفكر والإبداع في الوطن العربي، بسعي حثيث، لنشر ما صنفوه، لنرفد الحركة الثقافية العربية بدرر الكتابات الشامخة، التي لها أثرٌ في بؤرة الوعي، بما أبدعت، فهي جذوة الفكر، وفجر الكلمة.وكُلِّي رجاءٌ أن تتحقق هذه الأمنية،

لنحافظ على الفعاليات الفكريّة، ونحرص على إضفاء الطابع الحضاري على الأمة دون توقف، ونكون بمستوى المحتفى بهم، أولئك هم صنّاع الأدب، ومعلّمو الأجيال، وكلّ واحد منهم علم فرد، والسلام كلّ السلام على من حمل يراع العربية، واحتضن لغة الضاد، وحرق عمره في تعلّمها وتعليمها، فحقق بذلك فعالية المحبة، وأبدى بسلوكه تفانيًا لا يحدّ.

وكل المحبة للسادة الحضور، ولهم مني وافر التحية.

د.عبد الرزاق قدورة – م.وجيه السمان – د.عدنان الخطيب – د.شاكر الفحام – د.عبد الحليم سويدان
د.واثق شهيد – د.مختار هاشم – د.بديع الكسم – د.إحسان النص – د.أحمد راتب النفاخ

الدكتور محمد إحسان النص – رحمه الله

مع زملائه أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق

في المدرسة العادلية الكبرى (١٩٨٨)

د. موفق دعبول ـ د.عادل العوا ـ د.زهير البابا ـ د.عبد الرزاق قدورة ـ د.عبد الكريم اليافي ـ د.مكي الحسني الجزائري ـ د.عبد الحليم سويدان
د. مروان المحاسني ـ أ.جورج صدقني ـ د.ليلى الصباغ ـ د.واثق شهيد ـ د.شاكر الفحام ـ د.إحسان النص ـ د.محمود السيد ـ أ.سليمان العيسى

مع زملائه أعضاء المجمع
أمام المدخل الشمالي (٢٠٠٢)

د.إحسان النص – أ.منى الحسن – د.شاكر الفحام – د.واثق شهيد – أ.نظيرة المدني

الدكتورمحمد إحسان النص في استقبال الدكتور أحمد طالب الإبراهمي عام ١٩٩٥

كلمة الموسوعة العربية

ألقتها الأستاذة منى الحسن

السيد الدكتور مروان المحاسني المحترم رئيس مجمع اللغة العربية

السادة أعضاء المجمع الموقرون

السادة الحضور

أستهل كلمتي بقول الله عز وجل في كتابة العزيز: ﴿يآ أَيَّتهَا ٱلنَّفسُ المطمَئِنَّةُ ۞ ٱرجِعِيٓ إِلىٰ ربِّكِ رَاضِيَةً مَرضِيَّة ۞ فادخُلِيٓ في عِبَادِيٓ وٱدخُلِيٓ جنَّتِيٓ﴾

صَدَقَ اللهُ ٱلعَظِيم

كان لي الشرف أن أكلّف هذه المهمة التي أرى نفسي دونها، وأقف اليوم بينكم وأنا محرجة إزاء أستاذ كبير أتكلم عنه وهو الأستاذ الدكتور إحسان النص رحمه الله.

لاشك أنكم تعلمون أيها السادة أن الموسوعة العربية قد أُنجزت وصدرت بأعدادها الكاملة بعد عناء طويل يقارب الثلاثة عقود أو أكثر، وتولى رئاستها عدد من الأساتذة الأفاضل بداية من الدكتور شاكر الفحام وصولًا إلى الدكتور عزيز شكري رحمهما الله.

وإنه لأمر صعب أن أقف متحدثة عن أحد منابر الموسوعة العربية، فأسأل الله أن يلهمني من الكلام ما يفيه حقه، راجية المولى عز وجل في عُلاه أن ينال الثواب والمغفرة، وننال منه الأجر بإذن الله.

كان الدكتور إحسان النص علَمًا بارزًا من أعلام أهل اللغة، بل هو قامة علمية شامخة، يشهد على ذلك عمله المميز في مجالات التعليم والبحث والتأليف...ومشاركاته الفاعلة في المؤتمرات والندوات العربية والمحلية، إضافة إلى جهوده الحثيثة للتعريف بالتراث الحضاري والنهوض باللغة العربية، والكشف عن الدور الريادي للأعلام العرب في إثراء الحضارة العربية والإنسانية، وذلك من خلال عمله في هيئة الموسوعة العربية، فقد عرفته الهيئة رئيسًا لقسم الحضارة العربية وذلك في عام ١٩٩٠، كما كان عضوًا في مجلس إدارتها، وعندما باشر الدكتور إحسان رئاسة قسم الحضارة كان العمل الموسوعي في بدايته فجاءت ثقافته وخبرته ليرفدا العمل ويعززاه مكملًا ما بدأته الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله والأستاذ الدكتور مازن المبارك أطال الله بعمره. ولا شك أنه ترك أثرًا واضحًا في القسم بإشرافه على انتقاء مداخل الموسوعة الخاصة بالحضارة العربية، وتكليف الباحثين المختصين، ومراجعة الأمور المُعدَّة والتدقيق فيها وتحكيمها وإبداء آرائه السديدة في كثير منها، وإخراجها على الوجه المطلوب، إضافة إلى مشاركاته ومداخلاته المميزة في أثناء جلسات مجلس الإدارة.

لم تقف مهامه عند هذا الحد بل كانت له إضافات مهمة ترجمها بإنجاز عدد من البحوث المهمة للقسم، أعدها في مجال أنساب العرب والقبائل مثل قبيلة ثقيف وقحطان وثعلب وتميم وغيرها. وكتب عن عدد من الشعراء والأدباء مثل الجاحظ وبدوي الجبل. ومن البحوث العامة الموسوعية أنجز «أيام العرب في الجاهلية »و«الأدب العربي في العصر الأموي» وغيرها كثير. وعلى قلة مؤلفاته[1] فقد كان باحثًا متعمقًا دقيقًا في تقصي الحقائق وإبراز ما يراه مناسبًا، ويمكن أن يعدَّ كل بحث من البحوث التي أعدها للموسوعة نواة حقيقية لدراسة علمية وافية تصلح لأن تكون مؤلفًا متكاملًا. وبهذه المناسبة أودّ أن أقول إن ما

(١) لعلّها تريد: قلة مقالاته في الموسوعة (المجمع).

بذله الدكتور إحسان رحمه الله من جهد في الإشراف على قسم الحضارة قد ارتقى به، وهذا ما يدل على محبته وغيرته الشديدة على تاريخ اللغة العربية ووجودها وصمودها في وجه كل من يحاول تشويهها أو طمسها. ومن حسن حظ الموسوعة أنه أشرف على صدور المجلدين الأول والثاني، فكان هذا إنجازًا آخر إضافة إلى إنجازاته الكثيرة التي تعوّدها في حياته.

غادر الدكتور إحسان الموسوعة عام ٢٠٠١ قبل أن تكتمل وتخرج إلى النور بجميع أجزائها، واعتذر عن متابعة العمل ليتفرغ لمهامِّه في مَجْمعِهِ الخالد، التي تفوق أهميةً أيَّ عمل آخر،لتخلفه الدكتورة نجدة خماش. ومع أن الدكتورة نجدة كانت خير خلف لخير سلف فقد كان تركه للموسوعة خسارة كبيرة لنا ولي أنا شخصيًّا، إذ كنت أمينة سر قسم الحضارة؛ وهو لم يكن أستاذي في الجامعة، ولكنه كان أستاذي في الموسوعة فقد تعلمت منه الكثير الكثير، ومازال يطرق سمعي ليل نهار قولُه: «الإخلاص والدقة في العمل يوصلان إلى الكمال في كل شيء»، وهذا ما كان يردده دومًا.

السيدات والسادة الحضور

تخليدًا لذكرى فقيدنا الغالي أتقدم بمقترحين لعلهما يوفيانه حقه، ويعترفان بفضله، المقترح الأول: إطلاق اسمه على مَعلَم علمي في جامعة دمشق، يذكّر الأجيال بعطائه وذلك اقتداءً باحتفائنا بعطاء من سبقه من أعلام تركوا بصمات واضحة في مسيرتهم. والمقترح الثاني: الدعوة إلى إدراج اسمه في الموسوعات التي تؤرخ للأعلام المعاصرين.

رحم الله العلامة محمد إحسان النص، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله ومحبيه الصبر والسلوان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور محمود الربداوي

السيد رئيس المجمع

السادة الحضور

بِسْمِ ٱللهِ الرَحمنِ الرَّحيمِ، المحييِ المُمِيتِ،

القائلِ في محكم آياته، والمخاطبِ لرسوله الكريم: ﴿ومَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبلِكَ الخُلدَ أفإِن مِتَّ فهُمُ ٱلخالدوْن ۞ كلُّ نفْسٍ ذآئِقةُ ٱلموْتِ ونبْلُوَكمْ بالشَّرِ وٱلخيرِ فِتْنةً وإليْنا تُرجَعوْن﴾ صدق الله العظيم. [الأنبياء: ٣٤ و٣٥].

وصلّى الله على سيدنا محمد القائلِ في الصحيح من أحاديثه: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، أوعلمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

وفقيدنا الذي نحتفي بذكرى تأبينه اليوم ترك علمًا غزيرًا يُنتفع به.

فهذه المؤلفاتُ الكثيرةُ التي تركها ما زالت ينتفع بها الجم الغفير من المثقفين، والأجيال المتتابعة من الطلاب الجامعيين على مقاعد الدراسة، كما انتفع آلاف الطلاب الذين تخرجوا على يديه، وهاهم أولاء الآن يتوزعون على مساحة القطر العربي السوري وخارجَه، وينقلون ما تلَقّوْه من فكره وأدبه.

أيها الإخوة الحضور: أكرر قوله تعالى ﴿نحنُ قدَّرنا بَينكم الموْتَ وما نحنُ بِمَسْبُوقين ﴾

ولهذا أقول عن هذه الثلة المجمعية التي رحلت عن عالمنا كالدكتور إحسان النص والدكتور عزيز شكري والدكتورة ليلى الصباغ «هكذا يرحلون مثلما يرحل الغيم مثقلًا

بحبات المطر. ومثلما ترحل الأمنيات تاركة خلفها مساحاتٍ شاسعةً من الذهول. وهكذا يموتون مثلما تموت البذور في موسم خصيب»، أو كما قال الشاعر:

يتساقطون على الدروب كأنهم ... ورقُ الخريف يهزه الإعصارُ

هذه هي حكمة الله في مخلوقاته. أسكنهم في الدنيا حينا من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم نقلهم إلى دار الخلود: وهذا ما لحظه الشاعر عندما قال:

سكن الدنيا أناس قبلنا ... رحلوا عنها وخَلَّوْها لنا

ولقد نمضي على آثارهم ... ونخليها لقوم بعدنا

سكن إحسان النص الدنيا واحدًا وتسعين عامًا، كان فيها مُنعمًا ميسورَ الحال. ظل فيها في كل مراحل عمره نظيف الجيب، عفيف الفرج، يترفع عن سفاسف الأمور، وصغائر الأشياء، يحترم نفسه ففرض احترامه على الناس، دفعه علمه إلى أن يُحب الأناة وأن يصدر عن فكرٍ عميق، يقلِّب الآراء قبل أن ينطق بها. لا يتعجل في إصدار الأحكام قبل أن تُنضَج في عقله، وهذا أكسبه المهابة والاحترام.

شق طريقه في حقل العلم والأدب، وهو طريق يُيَسِّر العيش الكريم، وإن شكا منه بعض الذين أدركتهم حرفة الأدب، ولكنه ظل مخلصًا لكتابه وتخصصه فجاءت كتاباته عميقة الأفكار، بعيدة عن السطحية، يتمتع بثقافة واسعة، ليس في العربية وحدها،وإنما في التاريخ والأنساب ومقومات الخطابة. مارس أعمالًا إداريةً: عميدًا في كلية الآداب، ونائبًا لرئيس المجمع، وعضوًا في مجامع أخرى. أما حماسه للعربية فهو مُنقطع النظير، وفي التعليم في شتى مراحله، فكان من جيل المعلمين الذين يتمتعون بالوقار والمهابة في قاعة الدرس، فلا تقتحمه العين، أنفق عمره الذي تجاوز التسعين متعلمًا ومُعلمًا وعالمًا، ولو قُيِّضَ له أن يمتد عمره إلى المئة لظل يأخذ بحكمة الرسولﷺ اطلب العلم من المهد إلى اللحد، ولظل يأمل بالعيش بين الكتب والمخطوطات، هذا الأمل الذي لخصه الشاعر عندما قال:

المـــــرء يأمـــــل أن يعـــــيش وطـــول عـــيش قـــد يضـــره

تفنـــــى بشاشـــــته ويـــــأتي بعـــــد حُلْـــو العـــيش مُـــرُّه

وتخونـــــه الأيـــــام حتـــــى لا يـــــرى شـــيئًا يســــره

أيها السادة الأفاضل

صحبت الدكتور إحسان رَدَحًا من الزمان، قسمته إلى أربع مراحل:

١- مرحلة الجزائر ٢- مرحلة لبنان ٣- مرحلة الجامعة ٤- مرحلة المجمع

ولولا أنني أخشى أن أطيل عليكم، وليست هذه الظروف التي نحياها تسمح بالإطالة، لتكلمت على هذه المراحل الأربع. ولكن مرحلة الجامعة تكفَّل بالحديث عنها زميلي وصديقي الدكتور عبد النبي اصطيف، والمرحلة الرابعة مر أكثر الحديث عنها في تضاعيف كلمات الأساتذة المجمعيين.

وأكتفي بالحديث عن صحبتي للدكتور إحسان في جامعة الجزائر، وفي الجامعة اللبنانية في بيروت.

ولنبدأ بعلاقتي بالدكتور إحسان بالجزائر بدءًا من عام ١٩٧١، واخترت هذه العلاقة بالدكتور إحسان من مجموعة علاقات دامت سنتين، لصلة هذه العلاقة باللغة العربية والتعريب.

غير أنني أستميحكم العذر بأن أقدم - وبأسطرٍ قليلة- عن العلاقة الطيبة والوثيقة بين الدكتور إحسان والدكتور شاكر الفحام الأب الروحي لحركة التعريب في الجزائر. ولستُ مبالغًا إذا قلتُ إن التعليم في شتى مستوياته، الجامعي والثانوي والابتدائي، مدينٌ لجهود الدكتور شاكر.

فالدكتور شاكر شغل منصب سفير سورية في الجزائر بين العامين ١٩٦٤و١٩٦٨ أي بعد سنتين من استقلال الجزائر، وكانت أولويّات الشعب الجزائري التخلّصَ من اللغة الفرنسية التي فُرضت عليه قرنًا وثُلثَ القرن، وإحلال اللغة العربية محلَّها، فما إن

جاء إلى الحكم الرئيس (هواري بومدين) – وكان من المتحمسين للتعريب، لأنه خريج الأزهر – حتى أخذ في تعريب الجزائر، تعليمًا وإدارة، وعاونه في ذلك مجموعة من المؤمنين بالتعريب كاختيارٍ وطني وقومي وديني، وعلى رأس هؤلاء الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ابن الشيخ البشير الإبراهيمي كبير رجال الفكر والنضال في الحِقبة الاستعمارية. وكان الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي قد تسلم وزارة التربية والتعليم، وهذا بدوره وجد في شخص الدكتور شاكر أبرز وأصدق متحمس لقضية التعريب، الدكتور شاكر الفحام الذي وصفه مرةً الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع بقوله «إن الفحام سفير للتعريب، فهو لم يكتف بعمله الدبلوماسي»، ولذلك استقدم الدكتور شاكر للجزائر رفاقه في جامعة دمشق ووزارة التربية السورية لترسيخ ظاهرة التعريب، فقدِم أول من قدِم رفيقُ درب الدكتور شاكر الدكتور إحسان النص ثم الدكتور شكري فيصل، والدكتور أسعد الدرقاوي، والدكتور بديع الكسم، والدكتور هشام الصفدي، والدكتورة ليلى الصباغ، ومحمود الربداوي، وعبد الكريم الأشتر، ووحيد سوار، وبعض الأساتذة من كلية العلوم كالدكتور أحمد الحاج سعيد، وحسن كنيش، وأدهم السمان.

وقام الدكتور شاكر بتعريف الدكتور إحسان إلى ثُلَّة من عِلْيةِ القوم: منهم الدكتور الإبراهيمي وزير التربية والثقافة وغيرُه، وعندما غادر الدكتور شاكر الجزائر عائدًا إلى وطنه وتسلم فيه مناصب حساسة كوزارة التربية، والتعليم العالي، ورئاسة الجامعة، ورئاسة الموسوعة العربية، ظلت عينهُ مشدودة إلى تعريب الجزائر، فبعث الجيل الثاني للتعريب. وكان من بينهم العبد الفقير والدكتور جودة الركابي، ورضوان الداية وغيرهم. وكان ذلك في مطالع السبعينيات، والتقيت وقتذاك بالدكتور إحسان وترسخت العلاقة الطيبة بيني وبينه، وتزاملنا في كلية آداب جامعة الجزائر العاصمة، وتشاركنا في الإشراف على طلاب الدراسات العليا، وأسهمنا في تكوين طلاب أصبحوا يتسلّمون ـ فيما بعد ـ مراكز مرموقة في السلك الوظيفي كالوزارات والمؤسسات التنموية.

وفي عام ١٩٧٢ انتهت إعارة الدكتور إحسان للجزائر، وغادرها إلى دمشق، ولكنه كان قد عرَّفني بمجموعة من المسؤولين الذين يشغلون مناصب حساسة في الدولة والأوساط الثقافية، كالدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، وزير التربية والتعليم، والأستاذ عبد الحميد المهدي رئيس حزب جبهة التحرير الجزائرية. ومحمد الصديق بن يحيى، وزير الخارجية الجزائري ونفرٍ غيرِ قليلٍ من صفوة المثقفين. وفي هذه الأثناء أوصلتني الأقدار والأشخاص الذين عرفتهم عن طريق الدكتور إحسان، إلى قضيتين هامتين جدًا في مسألة التعريب: الأولى أن الرئيس بومدين زار جامعة الجزائر العاصمة، وتجول في مكتبة قسم اللغة العربية، فوجدها فقيرةً في الكتاب العربي، وكان أعظمُ ما فيها من الكتب الفرنسية، فهاله ذلك، وأمر المسؤولين من مرافقيه أن يخصصوا مليونَ دينارٍ جزائري لشراء كتبٍ عربية، لتزويد المكتبة بها. وشكَّلَ لجنةً مُهِمَّتُها الذهاب إلى مصر ولبنان وسورية، وكنت أحدَ أعضائها لشراء الكتب العربية التي زوّدنا بها المكتبة.

والثانية: كانت يوم تزوّج الرئيس بومدين من (أنيسة المفصلي) في منتصف السبعينيات، ومع أن أنيسة كانت محامية خريجة كلية الحقوق في السوربون فإنها لا تعرف اللغة العربية، على حبّها الشديد لها، واشتد حبُّها يوم أصبحت (سيدة الجزائر الأولى)، وأصبحت ترافق الرئيس بومدين إلى البلاد العربية. وتشعر بغصة لكونها لا تعرف العربية، فطلب بومدين من وزير التعليم العالي أن يختار من قسم اللغة العربية، حيث كنتُ، أستاذةً وتحديدًا من سورية لتعليم أنيسة، وعندما تناهى الطلب إليَّ رشّحتُ لهم طالبة سورية من طالباتي اسمها (مي مقدَّم) ابنة الشاعرة (مها غريب) وقامت بالمهمة خير قيام، ولكن تتمة قصتها في القصر الجمهوري انحرفت عن خدمة العربية والتعريب، وأنتم في غنى عن سماع تلكم القصة.

أما صحبتي الثانية للدكتور إحسان فكانت في مرحلة التدريس في الجامعة اللبنانية في السنوات الثلاث الأخيرة من العقد الثامن من القرن الماضي، وحصرًا سنة ١٩٧٨، ١٩٧٩، ١٩٨٠.

في إبان الحرب الأهلية، أيام اجتاحت لبنان الحربُ الأهلية، فانقسمت الجامعة اللبنانية إلى قسمين: الأول في بيروت الشرقية، وذهب إليها عامة الأساتذة المسيحيين، وهم السَّواد الأعظم من الدكاترة المدرسين، ويشكلون الكتلة الكبرى من أعضاء هيئة التدريس. والقسم الثاني بقي في جامعة بيروت الغربية، وهذا القسم خلا من المدرسين، فعمد الأستاذ الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، وكان عميدًا لكلية آداب جامعة بيروت الغربية آنذاك، إلى الاستنجاد بالأساتذة السوريين، فطلب من الدكتور إحسان النص عميد كلية الآداب بجامعة دمشق أن يسهم مع مجموعة من الأساتذة كنت أنا واحدًا منهم، وبصحبة الدكتور عبد الكريم الأشتر والدكتور أحمد طربين وغيرنا من الذين ذهبوا مناضلين، كما سمانا الدكتور إحسان (المناضلين تحت راية العلم والأدب)، حيث كنا نذهب نحن الأربعة يوم الجمعة، وهو يوم عطلة عندنا، وهو دوام عندهم، نذهب أسبوعيًّا طوال السنوات الثلاث تحت أزيز الرصاص ودويّ القذائف من ساعة دخولنا إلى بيروت حتى خروجنا منها، وكنا نردد ونحن في سيارة الأجرة بيتين للإمام الشافعي، يقول فيهما:

تغرَّبْ عن الأوطان في طلب العُلا وسافِرْ ففي الأسفار خمس فوائدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، واكتساب معيشةٍ وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ

وكان الدكتور إحسان يشجعنا بابتسامته الودودة وظَرفه الوقور، فيقول لنا أنتم تحققون في مجيئكم إلى بيروت العناصر الخمسة التي عناها الشافعي في البيت الثاني.

والحق أن هؤلاء الكرام من الأساتذة كلهم أماجد، وعلى رأسهم الدكتور إحسان ففيه من طيب العِشْرة، وعذب السلوك، وعميق الخبرة، وخفة الظل، ما كان يهوّن علينا عناء السفر، ومغامراته الخطرة.

أيها السادة الأفاضل والسيدات الفُضْلَيَات

اعذروني إذا قصَّرتْ كلماتي عن البوح الذي يجب على الصديق تجاه صديقه، فمساحةُ الصداقة عمرها أكثرُ من نصف قرن، وحجمها أكبر من أن يستوعبه كتاب. فمساحةٌ بهذ الحجم لا أستطيع أن أختزلها بربع ساعة، وتعداد مزايا فقيدنا الراحل لا تسمح بالإحاطة بها مثلُ هذه المناسبة. ولكني اكتفيت بالحديث عن مرحلَتَيْ علاقتي بصديقي في الجزائر وفي لبنان، وخاصة في عشقه للُّغة العربية واهتمامه بالتعريب.

وما دمنا نتحدث عن مآثر الدكتور إحسان وجهوده في حركة التعريب في الجزائر، كان من الجدير بنا ألا نُغْفِلَ أبرز وأعظم عملية في التعريب. اشتركت فيها الدولتان: الجزائرية والسورية وهي حركة تعريب الدكاترة الجزائريين المُفَرنسين، إذ اشترك من الجانب السوري الدكتور النص والفحام والربداوي، فاستقدمنا ١٥٠ دكتورًا مكوَّنًا باللغة الفرنسية في اختصاصات مختلفة، واستضفناهم في جامعة دمشق مدة عام كامل، ووزعناهم على نُظرائهم من الاختصاصات العلمية، وأخضعناهم لدورات يومية لتعليمهم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وأسكناهم مع أسر دمشقية.ثم أعدناهم إلى جامعاتهم بعد امتحان تأهيلي بإتقان المحاضرة باللغة العربية. ولكنّ الحديث عن تفاصيل هذه العملية حديث طويل الآن لا يتسع له المقام، ولكنه موجود مفصلًا في كتابي الذي عنوانه: (ذهب الذين أحبهم).

سادتي.. كأني بروح فقيدنا الدكتور إحسان النص الذي كان يجلس في هذا المكان ترفرف في علياء جمعكم هذا، مترنّمة بالكلمة الطيبة:

سيذكرني بعد الرحيل أحبَّتي وتبقى من المرء الأحاديث والذكرُ
زهور الرُّبا بعد الربيع قليلةٌ ويدنيك منها في قواريره العطرُ

للفقيد الرحمة والغفران، ولأسرته الصبر والعزاء، والسلام عليكم.

كلمة تلامذة الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف

كلما سقطت ورقة من شجرة المعرفة التي أتفيأ ظلالها تداعى إلى ساحة وعيي بيت عمرو بن معديكرب:

ذهـب الـذيـن أحبّهـم وبقيت مثل السيف فردا

وعندما أتأمل وجهي في المرآة، أحدّق في آثار الزمن فيه، وأشعر بدنوّ الأجل إذ ينسرب الضعف في جسدي، أعزي النفس ببيت حبيب بن أوس الطائي، أبي تمام:

لا تنكـري منـه تخـديـدا تخلّلـه فالسيف لا يُزدَرى إن كان ذا شُطَب

غير أني سرعان ما أصحو على بؤس الواقع الذي نعيشه منغمسين فيه برضى غريب عجيب، وإذ يتَبيَّن لي كيف تزهد مجتمعاتنا بآثار السنين، وتشتري خبرات الحياة بثمن بخس، فإني أسلم أمري إلى من منحني نعمة الحياة، مردِّدًا «حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل».

ذهب الذين أحبهم، أقولها وأنا أغبطهم، ذلك أنهم استسلموا لملك الموت يقبضهم إلى جوار ربهم، ومضوا إلى قبورهم يرقدون فيها، لعلهم يجدون هناك بعض الراحة في ضجعة الموت إلى حين انتقالهم إلى دار الشقوة أو دار الرشاد، إذا مارغبنا في استعارة عبارة أبي العلاء المعري:

خلـق النـاس للبقـاء فضـلَّتْ أمـــــة يحســـبونهم للنفـــاد
إنـــما ينقلـــون مـــن دار أعـــما ل إلى دار شـــــقوة أو رشـــاد
رقـدة المـوت ضـجعة يسـتريح الجسم فيهـا والعيش مثل السهاد

أغبطهم على ما انتهوا إليه من راحة، أما نحن، الأحياء، فلا راحة لنا إلا بلقاء وجه ربنا. ذلك أن الأحياء عندما يواجهون الموت: يفقدون حبيبًا، أو قريبًا، أو صديقًا، فإنهم: يعيشون الندم، بل الإسراف فيه، على تفريطهم بفسحة الحياة وعدم لقاء الفقيد أكثر مما لقوه؛ يعيشون الإحباط بسبب استحالة التواصل مجددًا مع الفقيد، ولا جدوى من الندم مهما طال.

وهكذا يلجؤون إلى استحضاره في نفوسهم بالحديث عنه، أو الكتابة عن مآثره، أو اجتراح أي فعل يشي بحزنهم على فقده، ويسعى إلى استدراك تقصيرهم بما كان عليهم أن يفعلوه من أجله عندما كان حيًّا.

ولكن كل ذلك وهم، فالكتابة تُغيِّب الفقيد، بحديثها عنه بصيغة ضمير الغائب، مع أنها تجهد في ذكر محاسنه، وهكذا فإنها تتحول إلى قتل ثان له من حيث لا يدري صاحبها ما تجترحه يداه.

غير أن الصمت، وهو الخيار البديل، تغييب له أيضًا، بالتجاهل أو الإهمال. ولذلك فإن جاك ديريدا كان يواجه الفقد دائمًا بوعد الكتابة عن الفقيد لاحقًا، ولكنه في نهاية المطاف كان يكتب[1]، وهأنذا أكتب عن شيخي محمد إحسان النص، فكيف لي أن

---

(١) انظر كتابه:

Jacque Derrida,

The Work of Mourning, Ed. Pascale-Anne Brault and Michael Nass, (The University of Chicago Press, Chicago and London, 2001).

أفرّ من قتله ثانية بالحديث عنه حديث الغائب؟ إنها لمعضلة والله، وتجاوزها مجرد اجتهاد، مسعى لعله يُحمد.

يبدو لي أن السبيل الوحيد للابتعاد عن التغييب الذي أشرت إليه هو محاورة الرجل.

لقد توقف قلب «**الإحسان**»، وتوقف الرجل عن المزيد من العطاء، ولكن «**النص**» لا يزال بين أيدينا «**علمًا ينتفع به**» ومن المحال أن يتوقف إحسانه، فلنحاوره بالاحترام الذي يليق بتاريخ صاحبه، وبالجدية التي أخذ نفسه بها، وبالأناة التي يبدو أنه فُطر عليها، وبالمعرفة التي كانت ديدنه، وبالإخلاص الذي كان دأبه، خاصة وأن الرجل اتخذ من «**شرح النصوص**» Explication de Textes منهجًا يتدبّر به نصوص الآخرين، وكان كل مافعله ينطلق من النصوص ويرتد إليها، لينوّر قارئها بعده ويجعله في وضع يمكنه من استيعابها وفهمها على النحو الأمثل.

لقد انشغل الرجل منذ بداية مسعاه المعرفي بنشأة الوعي الجمعي للأمة العربية وتشكُّله في ظل الدولة الأموية، بوصفها أنموذجًا للإفصاح السياسي المعافى عن الأمة العربية، ويُعدّ هذا الأنموذج، بإجماع المؤرخين السياسيين العرب وغير العرب، من أكثر النماذج تطوّرًا وأنصعها تعبيرًا عن الإرادة السياسية للأمة التي قامت على التنوع الخلاق Creative Diversity، والذي تجلى بأسمى صوره في الأندلس التي لاتزال، ليس في عيون العرب وذاكرتهم فحسب، بل في عيون الإنسانية وذاكرتها الجمعية أيضًا، الفردوسَ المفقودَ الذي ينبغي عليها أن تستعيده. أقول لقد انشغل الرجل بعملية تشكّل هذا الوعي عندما درس « **الخطابة العربية في العصر الذهبي**»، وبعدها «**العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي**» في رسالتيه لدرجتي الماجستير والدكتوراه، ليتبعهما بدراسة **شعر الغزل في العصر الأموي، و الشعر السياسي في العصر الأموي**، ودراسة كلٍّ من الشعراء **حسان بن ثابت وزهير بن أبي سلمى والعباس بن الأحنف**، فضلًا عن دراسته الرائدة والمتقدمة لـ

القبائل العربية وأنسابها وأعلامها في جزأين، وصناعته لـ اختيارات الأغاني في ستة أجزاء. وعمله العلمي الأخير **كتب الأنساب العربية** الذي صدر عن مجمع اللغة العربية، منصرفًا إلى دراسة نصوص الأدب العربي وما تنطوي عليه من توزُّع الولاء بين «**الأنا**» و«**الجماعة**»، ولعله كان يسعى من وراء ذلك إلى فهم طبيعة النفس العربية من خلال فهم ما تفصح عنه شعرًا ونثرًا، ليتبين السبيل إلى تعزيز الولاء للجماعة في نفوس أبناء الأجيال التي درَّسها في سورية والجزائر والكويت، فَبِه وَحدَهُ تجد سبيلها إلى العزة والكرامة، وإلى بناء الحاضر الذي يليق بصروح الماضي المجيد، واستشراف المستقبل الواعد، الذي يمكن أن يفخر أحفادُ بُناتِه بِمن بناه.

ومن الضروري بمكان الانصراف إلى محاورة هذا «**النص**» المتدفق على مدى أكثر من ستة عقود، والانشغال به وتجاوزه حتى يتم الإسهام على نحو إيجابي بتأدية الرسالة التي نذر نفسه لها.

نعم لقد توقف قلب «**الإحسان**»، وغيَّبه الموت، ولكن «**النص**» لا يزال بيننا لنحاوره بما أمكن من طرق يمكن أن أشير إلى بعضها على نحو برقي:

١- الكتاب التكريمي Festschrift الذي يسهم فيه أصدقاء المكرَّم، وتلامذته، وأقرانه بغرض التنبيه على مكانته، وأهمية إنتاجه، وتوضيح إسهامه في حقل تخصصه المعرفي.

٢- تسمية كرسي باسمه في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق يُسند إلى من ينهض برسالة المكرّم التي نذر نفسه لها.

٣- تنظيم محاضرة تذكارية باسمه تلقى سنويًا من جانب أستاذ بارز في حقول اهتمامات المكرّم.

٤- تأسيس منحة باسمه تمنح لطالب أو أكثر يتابع دراسته في جوانب من اهتمامات المكرّم البحثية.

٥- تخصيص جائزة كتاب باسمه تمنح لمُؤَلَّف يتناول واحدًا من جوانب اهتمامات المكرّم الفكرية والبحثية.

٦- إقامة ندوات ومؤتمرات تناقش إسهام المكرّم وأعماله.

٧- إصدار أعداد خاصة من المجلات المرموقة المعنية باهتمامات المكرَّم تتناول موادها حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والمناقشة وتتحاور مع آرائه وأفكاره وتبني عليها، دافعة أبحاثه ومحاجاته إلى مدى أوسع وأفق أبعد.

٨- تسمية بناء، أو مكتبة، أو قاعة، أو مدرج في الجامعة باسمه، تُذَكِّر بإحسان الرجل الغائب، والنص الحاضر.

رحمك الله ياشيخي الجليل، وألهم أهلك وأحبّتك الصبر والسلوان، وبعث فينا ماينبغي من علوِّ الهمة والإخلاص في العمل للنهوض بعبء حوارك فيما تركته فينا من علم ومعرفة، لنفهم أنفسنا، ونفهم غيرنا، ونفهم العالم الذي نعيش فيه.

من آثار الفقيد ومؤلفاته

- الخطابة في العصر الأموي.
- العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأموي.
- الشعر الغزلي في عصر بني أميّة.
- حسان بن ثابت، حياته وشعره.
- زهير بن أبي سلمى، حياته وشعره.
- العبّاس بن الأحنف، حياته وشعره.